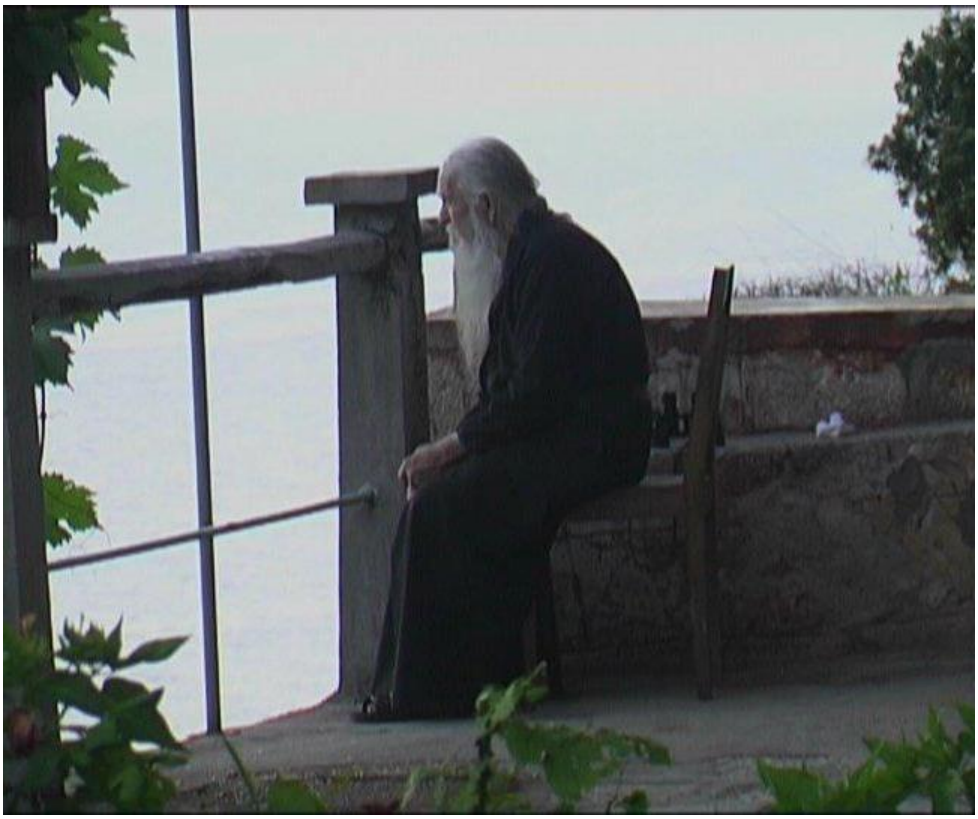

الأُبوَّةُ الروحية

بقلم المعلم الأنطاكي الشماس اسبيرو جبور

الأُبوَّةُ الروحيَّة موضعٌ رهباني. آباء البرية هم أناسٌ مُلهَمون، أصحابُ موهبةِ التمييز. في رسالة يوحنا الإنجيلي الأولى موهبةٌ إسمها موهبة تمييز الأرواح.

في كتاب السُلّم الى الله- الفصل الأطول هو فصل التمييز المقالة 26.

فتمييز الأرواح هو موهبة من مواهب الروح القدس. الشيخ الروحاني يُميّز الأرواح ويكون خبيراً بحركات الأهواء، والغاية هي إعادةُ تربية الراهب تربيةً روحيةً جديدة. فالطفولة تترك فينا أساساً لعيوبٍ عديدة، والعوائد السابقة تؤثّر في حياة الإنسان الروحية كما يقول يوحنا السُلّمي. فالراهب يصل الى الدير للتطبُّب الروحي، للتوبة، لتبديل الحياة تبديلاً جذرياً، لتغيير مسلك حياته برُمَّتِه. غريغوريوس بالاماس نقلاً عن الآباء السابقين وعلى الأخص منهم آباء البرية ويوحنا السُلّمي ومكسيموس المعترف قال بتحوُّل الأَهواء أي أننا لا نسحق الأَهواء بل نُحوِّلها. نحوِّل العشق الجسدي الى عشقٍ الهي، نحوِّل الغضب الى طاقة لمحاربة الأهواء الأخرى، الى طاقة للعمل، للرياضة، للصبر، للتحمُّل، لطولِ الأناة. الغضب مصدرٌ كبيرٌ للطاقة النفسية نُحوِّلها الى ميادينَ عديدة، الى الجهاد ضد الأهواء الأخرى، الى إرادةٍ قوية فولاذية، الى ضبطٍ للنفس، الى إجتهادٍ في العمل اليدوي.

يُحارَب الكبرياء بالتواضع الذي يشكِّل فضيلة هامة تقطع عروق الأهواء في الأرض. المتواضع هو عاجزٌ عن الغضب والنرفزة والكبرياء

والعجرفة والإحتقار والعداوات والكَيد والإنتقام وعيوب أخرى كثيرة ولذلك فالأبوّة الروحية هو طبٌّ روحيٌّ.

يوحنا السُلّمي يذكر في مواضعَ عديدة من كتابه أن الأديرة مشافٍ وأن المرشدين الروحيِّين في الأديرة هم أطباء روحيّون. قال غريغوريوس اللاهوتي في الإرشاد الروحي إنه علم العلوم وفن الفنون فاذن، هو أصعب العلوم وأصعب الفنون لأن النفس البشرية معقّدة جداً وأمراضها أكثر تعقيداً من أمراض الجسد.

النفس البشرية بسبب السقوط لم تعد بسيطةً صارت معقّدةً، لذلك فطفولة الإنسان هي معقّدة. الحيوان يولد مُجهَّزاً، بينما يولد الإنسان غير مجهَّزٍ فيتولّى الأهلُ العناية به وتجهيزه وتدريبه وتقويمه. لدى الولد أنواعٌ لا تُحصى من الشطط. الهوى والرغبة مسيطران عليه لأنه بدون منطق، بدونِ عقلٍ مُفكِّر. زوَّدَت الطبيعة الحيوان بما يلزمه ولكنها لم تُزوِّد الإنسان بما يلزمه فهو يحتاج الى الأهل والمربّين. ثم يتولّى العقل والإدراك تسييره بمعونة الله فيصير الإنسان أنيساً في المجتمع. ولولا المدارس والجامعات لما كان لنا اليوم من علوم. ولذلك فالتعاطي روحياً مع الانسان هو أمرٌ دقيقٌ جداً.

المسيحية هي ديانة الكمال الأخلاقي، والكمال الأخلاقي يتحقق بتحويل الأهواء والرغبات والميول والشهوات والعشق والإشتياق الى عكسها وبعبارةٍ أخرى، نضع الفضائل مكان الرذائل فنُحوِّل الأهواء الى أهواءٍ صالحة. هذه العملية هي عمليةٌ شاقة جداً. التربية تساعدنا كثيراً على التقويم، فنقوِّم المرء فينمو بصورةٍ جيدة لا كاملة. الكمال يتطلّب جهاداً أقوى من ذلك بكثير ولذلك فالطب الروحي هو إعادة تربية لنربّي الإنسان روحياً ونجعله يخلع الإنسان العتيق ويلبس الإنسان الجديد وهذا يعني أن نُميت العتيق ونحيي مكانه الجديد.

لا نُميته بالمعنى الصحيح بل نحوِّله وعملية التحويل شاقّة تحتاج الى جهادٍ روحيٍ مرير جداً ونحن لسنا في المعركة وحدنا، فالشياطين يحاربوننا بضراوة كما وصفَها بولس الرسول في الفصل السادس من رسالته الى أهل أفسس. فلذلك الآباء الروحيون في الأديرة القديمة وفي الأديرة اللامعة حديثاً هم مدرِّبون تدريباً كبيراً في الشؤون الروحية يعرفون أعمق أعماق الانسان، يُراقبون الإبن الروحي باستمرار والإبن الروحي يفتح صدره لهم باستمرار حتى يصلوا الى درجة القراءة في

أعماق أعماقه وهذا يتطلّب الاضطلاع على كامل حياة الإنسان إن أمكن.

في كتابي "الإعتراف والتحليل النفسي" وفي كراستي "الإعتراف الرهباني" نصوص آبائية مهمّة للمقارنة بالتحليل النفسي. والتحليل النفسي هو طبٌّ يقف الى جانبه الطب النفسي الجسدي وهما مرتبطان ببعضهما البعض إرتباطاً متيناً جداً. جان كلود لارشيه ألّف في الفرنسية كتاباً رائعاً عنوانه "معالجة الأمراض الروحية" يصف فيه الخطايا والأمراض الروحية وصفاً جيداً بنصوصٍ أُسقفية من تراثنا الأرثوذكسي. هو كتابٌ صالحٌ للتمرُّس وللعلم ولكن هناك الممارسة كفنٍّ وهذا يحتاج الى خبرةٍ نفسيةٍ عميقة. من جهةٍ أخرى، ما كل الناس ذوو إستعداداتٍ نفسية للعمق الروحي أو لِسَبر أغوار نفس الغير، هنا يتطلب الأمر لباقات خاصة. ولذلك ما كل الذين يمارسون الطب النفسي أو الطب النفسي الجسدي هم عباقرة، هناك تفاوت كبير بينهم وذلك بحسب اللباقات الشخصية ففيهم مَن هو مؤهَّل للغوص في أعمق أعماق الإنسان وفيهم مَن هو على خلاف ذلك ولكنه ذو قدرة على الفهم والاستيعاب وعرض الأمور بشكل منطقي

فكري. أي يغلب على بعضهم العمق التحليلي، وعلى بعضهم شيءٌ من التحليل المنطقي والعقلي، وبعضهم ما هو بدون عمق ولكنه يتطبّب ليُصبح طبيباً فيستفيد من العملية التطبيبية لإصلاح حاله، ولكنه قد لا يكون مؤهلاً ليُطبِّبَ الآخرين لأن تطبيب الآخرين. يتطلّب كفاءات ولباقات خاصة وصبراً جميلاً لتحمُّل الآخرين.

اذن، المسألة تحتاج الى علمٍ وفنٍّ والى ممارسة دقيقة في أحوال البشر والإضطلاع على أعماق البشر. المكان الصالح للتدرُّب على ذلك هو في الأديرة. ولكن الأمر يقتضي البقاء في الأديرة لدى شيوخها سنوات، أي أن يقضي لدى شيخاً روحانياً كبير 10 أو 15 سنة ليُصبحَ مؤهلاً للأُبوَّة الروحية الحقيقية التي بموجبها يستطيع أن يُطبِّب النفوس وأن يُحوِّل أهواء الإبن الروحي الى أهواءٍ صالحة روحياً.

في هذا الزمان لدينا صعوبات قوية جداً للإرتقاء الروحي. فظروف الطعام والشراب واللباس والنوم إختلفت وكذلك ظروف العمل، وهناك أيضاً السكَن المعاصر والمدارس، والأب والأم في العمل والأولاد في عِهدة الخادمات أو في مدارس روضات الأطفال، وهناك زحمة السكان وزحمة السير وغيرها المزعج والأدوات المعاصرة الأخرى التي

تُرهِقنا كالتلفزيون والكمبيوتر والإنترنت وتُضيع الوقت سُداً. وفي ظروف الزمان الحاضر الضغط على النفس البشرية كبير من كل النواحي والتربية تسوء يوماً بعد يوم.

نظام الطعام فاسد. وجبات الطعام يجب أن تكون منظّمة، الجلوس على الطاولة مهمٌّ جداً والأكل يجب أن يكون بإعتدال وليس بشراهة، بهدوء بدون الإكثار من المواد الثقيلة على المعدة مع تجنُّب المسكرات والأكل ما بين وجبات الطعام.

الناس بحاجة الى مستشارين روحيِّين، الى نصائح. هذا يتطلّب قدرة على الإرشاد الروحي وهذه الأخيرة تتطلّب عِلماً وفناً وتدرُّباً وتمرُّساً.

منذ سنوات وقعتُ على إنسانٍ إنتزع لنفسه صفة الإرشاد واذا به يُسيء الإرشاد ويتسبب للمرشدين بأوجاع معيِّنة فردعته عن الأمر وأبَنتُ له الأضرار التي تحصل من نصائحه الفاسدة. لكي نستطيع معالجة الإنسان، من الضروري لنا أن نفهم تاريخه من كل النواحي جسدياً ونفسياً وإلا وقعنا في أخطاءٍ عديدة. المعالجة الروحية تحتاج الى عمقٍ كبير في الفهم النفسي، القيادة الروحية هي فنٌّ عسيرٌ جداً.

هناك أناسٌ جيدون، ولكن هل تخلّوا عن الحسّاسِيَّة والغضب الباطني؟ هل يتحمّلون الشتائم والسُباب والاضطهاد دون حقد، دون كراهية، دون غيظٍ شديد؟ انا أعرف كميةً كبيرة من الأوادم كما نقول في العامية ولكنهم ليسوا بلا حسّاسيَّة، بلا غضب، بلا ضجر وليست لديهم القوة على تحمُّل الشتائم وقد تثور ثائرتهم اذا علِموا أن فلان إنتقدهم. تحمُّل نقد الآخرين بصبرٍ جميل وطول الأناة يحتاج الى تدريبٍ روحيٍ عسير. فلذلك تعقيدات الإنسان الباطنية مهمة. قد يستطيع الإنسان في الظاهر أن يكون وديعاً لطيفاً متواضعاً شفوقاً رحيماً ولكن هذا لا يكفي. المهم أن يتبدّل العمق. وتبدُّل العمق يحتاج الى شيخٍ روحانيٍّ كبير وهذا الشيء نادر الوجود فلذلك مطالعة كتب القدّيسين هي مهمّة ليستنتجوا منها. قد يلجأ أدعياء الأُبوّة الروحية الى حَصر أبنائهم بهم فيُمزِّقون الطائفة بذلك وتصبح الطائفة مُقسّمة بين الكهنة وهذا خطرٌ كبير. من جهةٍ أخرى، رئيس الدير هو الذي يُعيّن الآباء الروحيّين ويعرف قُدرَتهم على القيادة والإرشاد الروحي وليس كل مَن ابتاع لنفسه ذلك صار أنطونيوس الكبير .

الإعتدال والتواضع أمران مهمّان. القديس يعقوب الرسول قال" لا يكن فيكم معلِّمون كثيرون" فإدِّعاء العِلم باطلاً مضيع جداً.

في كنيستنا الأرثوذكسية الايمان الأرثوذكسي هو اساسُ الروحانية .

الإنسان هو ذروةُ هذا الكون.

ديكارت صرفَ الناس الى التفريق بين الروح والجسد فانصرف الناس الى الجسد، يدرسون الجسد وكانت النتيجة صلبهم في الروح. وعبثاً حاولوا ايجاد الروح في الجسد وايجاد الفكر في الجسد وكل ما توصّلوا اليه هو تفاعلاتٍ في الجسد تُرافق النشاط الذهني والروحي، ولكنها ليست الروح وليست الذهن ولا يُرى الفكر للمجاهر ولا نستطيع أن نقرأ في الدماغ فكر الانسان. هوذا الدماغ يشتغل ولكن الدماغ لا يفرز الفكر.

في عالمنا الأرثوذكسي نقول "الانسان شخصٌ في روحٍ وجسد" وليس الشخص مركّب كيماوي من الروح والجسد فإن جمَعنا روحاً وجسداً لا نفوز بشخصٍ. الله هو الذي خلقَ الشخص وفيه روحٌ وجسد. هذا الايمان الأرثوذكسي هو أساس الحضارة الأرثوذكسية. المؤمن واللاهوتي الأرثوذكسي الصحيح لا يستطيع أن يقول إن الانسان

جماد، او حيوان او أصله قرد. المؤمن الأرثوذكسي يرفض كل هذه الأقوال لأنها تصلب الشخص والشخص أعظم من ذلك بكثير فهو أبعد من الروح والجسد. هو صورةُ الله في هذا الكون وبما أنه صورة الله فهو عميقٌ جداً. لا نسبر أغواره في المجاهر والتيليسكوبات. الإيمان بالانسان كشخص هو الإيمان الصحيح. الانسان هو عالم المجهولات نحتاج في سَبرِ أغواره الى الروح القدس، الى موهبة التمييز التي لم تُعطى لكل البشر. الذي تنقصه الحكمة، فليطلب الحكمة من الله كما قال الرسول يعقوب، هذه موهبة ننالها بمعطيَّة الهية. واخيراً كما قال غريغوريوس اللاهوتي العظيم، الإرشاد الروحي هو علم العلوم وفن الفنون، ولذلك ليس أمرٌ سهلٌ ابداً. نحن نعرف أن العلوم والفنون ما زالتا في حرف الألف، فكيف نبلغ الى نهايتها بسرعة البرق وندَّعي أننا وصلنا الى حرف الياء ونحن بعد لم نحفظ حرف الألف من نفس الانسان.

ولذلك فالصبر الجميل والإعتدال هما أمران مفيدان وضروريان في معالجة كل الأمور. الإدِّعاء الفارغ مرضٌ كبير. الممارسة تجعل العلم فنّاً وما كل البشر ذوو كفاءات للممارسة. في علم النفس التِقَني أمورٌ

كثيرة. فتاةٌ فشلت في كل الميادين فكلّفوها الضرب على الآلة الكاتبة فاذا بها رشيقة جداً فوُظِّفت في الضرب على الآلة الكاتبة. فالإنسان عالَمٌ بحدِّ ذاته متعدِّد الأنواع والألوان لا نستطيع أن نحصره ابداً.

اللباقات والمهارات والحنكة أمورٌ مهمة. العلم بدون ممارسة صحيحة لا يكفي فهو يحتاج الى ممارسة لكي يجعل العلم مفيداً. العِلم يوسِّع الإستعدادات ولكن المهارة الشخصية هي التي تدع الانسان ينجح.

هناك أنواعٌ من التعقيدات النفسيِّة. مثلاً يقع الفصل isolation بين الإدراك والفعل فيُجيد المرءُ مثلاً الكلام ولكنّه لا يُطبِّق. يقع الفصل مثلاً بين المعرفة والحِنكة العمليِّة. أُسمِّيهُم " الكُسَحاء الفُصَحاء" بسبب الإنفصام بين القولِ والعمل. ما كلُّ البشر قادرون على الحِنكة أو ما نُسمِّيه في اللغة العامية "الحربَقَة" (الشريفة لا الخبيثة).

دكتوراه في اللاهوت لا تعني أن الشخص الحاملها هو خطيب ومفوِّه. الخطابة هي فنٌ عمليٌّ، فما كل أساتذة اللاهوت خُطَباء، يجب أن يتمرِّسوا به ليُصبحوا خطباء لامعين. الأبواب المفتوحة أمام الانسان. فهي لا تُحصى ابداً والذي نعلَمَهُ هو شيٌ زهيدٌ ممَّا لا نعلَمَهُ. الإنسان هو اللغزُ الأَكبر في هذا الكون، هو المحيِّر الأكبر. بسبب الحرية

الحسابات لا تصحُّ للانسان مئة بالمئة. يبقى هناك دائماً هامشٌ من الخطأ حتى الأطباء النفسيُّون يرتكبون أخطاءً. فَفِهم النفس البشرية هو أمرٌ عسير ويحتاج الى الوقت والى جلساتٍ متكرِّرَة. كي نفهم الإنسان، يجب أن نكون مؤهَّلين تأهيلاً جيداً علمياً وعملياً. وأين مدارس التأهيل؟ غير متوفرة. لذلك فمطالعة كتب الآباء القدِّيسين مفيدةٌ جداً. يوحنا السُلّمي لم يرفض أهل الدنيا، رهبانيَّته لم تدفعه الى التزمُّت. الذين في العالم هم قادرون على الخلاص في حياةٍ مستقيمة يعيشونها في الله. يبقى على الانسان أن يُديرَ أمورَه بلباقة مستعيناً بذوي الخبرة والفَهم. الله له المجد لا يُهمل إنساناً يلتفت اليه بتواضعٍ، فلتكن عندنا إلتفاتة جيدة الى الله ولنرفع القلوب باستمرارٍ الى الله. الله لا يُخيِّب آمالنا في الملكوت السماوي وهو العارف ما في القلوب وهو يساعدنا لكي تكون قلوبنا منشغلةً به لا بسواه لكي نُطبِّق كلام الله يسوع المسيح "أُطلبوا ملكوت الله وبِرَّه وكلُّ ذلك يُزادُ لكم" والشكر لله ربنا على كلِّ شيء من خيراتٍ نعلَمُها ولا نعلَمُها له المجد والإكرام والسجود الى أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين.